

## تدبير الشأن التربوي بين الحاج مالك سه والإمام سعيد النورسي

جغا نجاي

\* باحث في جامعة الزيتونة

\* Researcher at Al-Zaytoonah University

**E-mail:**

ndiagawaly@hotmail.fr

**Orcid:**

<https://orcid.org/0009-0003-2187-0857>

**Received:** July 13, 2023

**Accepted:** July 28, 2023

**Published:** July 31, 2023

**Citation:**

**Nday, Ndiaga, Management of educational affairs between Hajj Malik Sah and Imam Saeed Nursi, Istanbul, The Journal of Risale-i Nur Studies 6:1 (2023), 68-85**

### المستخلص

ستحاول هذه الوريقات تقديم لمحة يسيرة عن تقارب جهود علمين جمع بينهما انتمائهما للإسلام والحماس لدعوته رغم تضافر العقبات والمنغصات، وعني بذلك الإمامين الحاج مالك سه السينغالي والأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، مبرزين باختصار غير مخل جهودهما في مجالات الإصلاح الاجتماعي والتربوي والتكويني، إذ تبين لنا بعد أن قرأنا رسائل الإمام النورسي، وما حضرناه من ندوات في جامعة الزيتونة بتونس ومناقشات لأطاريح حول إنجازاته، تبين لنا من خلال ذلك ضرورة التعمق وكتابة مقالة عن: وحدة الهدف وتقارب المسارات ومنهج التربية عند الإمام النورسي والحاج مالك سه رغم التباعد الجغرافي والفارق الزمني، فرأينا أن نقوم بعرض بعض من أفكارهما قصد البيان أن الرسالة التي حملها إلى أقوامهما لا تختلف في مضمونها وفحواها، وفي طريقة التعامل مع الأتباع، ونقاط أخرى نجد فيها آراء مختلفة بين العلمين لأسباب سياسية استعمارية واقتصادية إلى غير ذلك.

**الكلمات المفتاحية:** الإمام النورسي، الحاج مالك سه، التربية

## **Management of educational affairs between Hajj Malik Sah and Imam Saeed Nursi**

### **Abstract**

In this article we'll attempt to provide an easy glimpse on the focal points between the work (and endeavours) of two scholars whose affiliation with Islam and enthusiasm for its call brought together despite a series of obstacles: Seydi Hajj Mack sy from Senegal and Ustad Badi' Al zaman Saeed Nursi. We'll try a sum-up focusing on the efforts they both made in initiating social, educational and formative reforms. Throughout our readings of imam Nursi's Resayel ennour, seminars we attended at Al Zaytouna University in Tunisia and talks about his achievements , it became clear to us we need to delve deeper and write an article on: the unity of their purpose, the convergence of their paths and their strategies of education despite the geographic distance and epoch they lived in. We'll illustrate some of their concepts which, we think, are not different from...Seeing all the resemblances, as named above, between imam Nursi and Seydi Hajj Malick Sy, their separate epoch and county, we tried to present some of their thoughts and show that the message they both carried to their respective people doesn't differ in its content as for dealing with their followers. However we the noticed some differences related to the political, colonial and economic context they faced.

**Keywords:** Imam Nursi, Hajj Malik Seh, Education

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد الصادق الأمين ذي القلب الرحيم من علم العالم قواعد العمران بآتم تبين، ونشر الإسلام بالأخلاق الفاضلة والقيم الإنسانية، ورضي الله الصحابة ذوي الفضل والإحسان والتمكين، أما بعد:

تندرج هذه الدراسة ضمن بحوثنا المتعلقة بالإصلاح الديني وإدارة مؤسساته من خلال المقارنة بين علمين من أعلام الدعوة في الحقبة المعاصرة، نعني بذلك شخصية الحاج مالك سه السنغالي الذي لازالت إنجازاته التجديدية وأفكاره وحياته الإصلاحية الاجتماعية لم ينفذ عنها الغبار على الوجه اللائق بعد، أما الشخصية الثانية فهو الإمام سعيد النورسي، وهو الذي لاقت أعماله الموسومة بـ"رسائل النور" الرضا والقبول بين مختلف شرائح المجتمع التركي وخارجه، فتعددت الرسائل الجامعية والمقالات حول آثاره، لما قدم من جهود جبارة في مجال الدعوة والإصلاح الاجتماعي. لقد ارتأينا أنه من الأهمية بمكان أن نحاول الربط بين الشخصيتين بأفكارهما وبفلسفتهما في إدارة العملية التربوية، لبيان أوجه التقارب والتباين في الأهداف والمنهج، لعلها تكون إضافة لتقارب الثقافتين، وأن تفتح على آفاق أوسع للبحث. فإلى أي مدى يتوافق منهج الحاج مالك سه السنغالي في تدبير الشأن التربوي مع منهج الإمام سعيد النورسي؟

لمحة يسيرة عن سيرتهما الذاتية:

الحاج مالك سه عالم سنغالي مالكي المذهب أشعري العقيدة جنيدي المسلك، تجاني الطريقة، ولد في "غايه" قرية صغيرة سنغالية، سنة 1853م \_ 1922م (انجاي، 2011: 15-18). تتلمذ الحاج مالك سه على عدد كبير من علماء عصره للدراسة والتفقه والتثقف، حتى بلغ من العلم شأوا كبيرا يشار إليه بالبنان، لما قدمه من تجديد في مجالات مختلفة كالتربية والتعليم وبث روح الأخوة بين الأتباع (توري: 2009: 1/423).

اشتهر الحاج مالك سه بكونه شيخا صوفيا تجانيا كَوْن أتباعه تكوينا فكريا إسلاميا متينا، بعيدا كل البعد عما كان متبعيا في العصر السابق له من التقليد الأعمى لشخصية الشيخ الصوفي ومبادئه الذي لا تجوز مخالفته، أما الحاج مالك فقد كان يرى نفسه طالبا من بين الطلاب، ناهيك عن أفكاره التآقادة للممارسات الدينية القديمة، خصوصا العادات الصوفية التي كانت سائدة في المجتمع السنغالي ولا زالت حتى الآن، فكان له منها موقف وآراء وأفكار تستحق الوقوف والدراسة، حيث كتب في ذلك كثيرا لعل أهمها كتابه: "كفاية الراغبين فيما يهدي إلى حضرة رب العالمين" (سه الابن، دت: 75).

أما الإمام سعيد النورسي الذي اشتهر بـ"بديع الزمان" فهو عالم إسلامي ولد بتركيا سنة 1887، وبها توفي سنة 1960، نشأ بديع الزمان سعيد النورسي على البيئة الصوفية (النقشبندية والقادرية) (النورسي، 2011: 63)، غير أنني لم أقف على دخولهما في السنغال، لكنها طريقة مشهورة ذكرت في كتب الطرق الصوفية. حيث قاد هذا الأخير حركة دينية ذات طابع دعوي اجتماعي حاربت السياسات الكمالية بشكل سلبي، واهتمت بإصلاح الكثير من العادات القائمة على بعض التقاليد القديمة داخل المجتمع الصوفي التركي، ولعل ذلك ما نتج وسبب له أن عاش بين الاعتقال والمحاكمات والمنافي والمضايقات، وكتب بين هنا وهناك عددا كبيرا من الرسائل، عُرفت ونُسخت فيما بعد من قبل أتباعه، حتى عُرفت في المجتمع التركي خاصة وعند عدد من الأكاديميين (السبتي، 2023: 19-20).

### البدايات والمضايقات

أسس علماء الإسلام قبل الحقبة الاستعمارية دويلات فيما سيعرف لاحقا بالسنغال وكانت تحكم بالقرآن والسنة، أذكر منها: الدولة الإمامية في فوتاتور، غير أن الإسلام في السنغال سيعرف مضايقات كثيرة بفعل الاستعمار الفرنسي الذي كان ولا يزال يجتهد في محو الهوية والتاريخ كما ينهب ثروات البلدان التي تم استعمارها، وكان للدين الإسلامي نصيب الأسد من هذه المضايقات حيث هُدد العلماء والمشايخ بشتى أنواع التهديد من القتل والتفني والتحاليف مع الوثنية في محاربتهم ووضع قوانين لمنع فتح الكتابات القرآنية التي كانت سائدة وأنتجت للسنغال علماء لا يعدون كثرة. وبما أن فكرة الجهاد تجري

مجرى الدم في عروق الصّوفية والديّن، فقد قام جملة من المجاهدين بالمقاومة المسلحة، وواجهوا المستعمر بما توفر لديهم من قوة وأسلحة أذكر منهم: المجاهد أبو حفص عمر بن سعيد الفوتي بن سعيد بن عثمان بن مختار، المولود سنة 1797م بقرية حَلَوَاؤ (1797 المنتقى، 2004: 27) والمجاهد الكبير مابا جاجو باه من أبرز المجاهدين السنغاليين في مواجهة المستعمر الفرنسي (البرني، 1999: 172). ولا شك أن هذه الحركات الإصلاحية لا تصادف فكرة المستعمر في محو الهوية والتاريخ وغيرها. فكان الحل إذن في محاربتها ومحوها من الوجود. فاستهدفت فرنسا العائلات الطّرقية والمشايخ الأكثر نفوذا وأتباعا وتوارثت هذه العادة (Thiame، 2013: 2-3).

ظهر الحاج مالك سه في تلك الفترة بعد أن اشتدّ عوده في العلم والفكر بتقديم إسهامات كبيرة لبناء المجتمع السنغالي وتكوين الهوية السنغالية المسلمة، ونتج عن فكرته الإصلاحية عدة استدعاءات من قبل السلطة الاستعمارية للتحقيق معه، ونشر الوشاة والعيون داخل زواياه وجماعته وبالتالي تمت راقبته مراقبة شديدة، غير أنه لم يكن ينوي المقاومة المسلحة كما قام بها غيره من نفس الطّريقة (Wane، 2010: 1/124).

وشهد السنغال بوجوده نشوء جيل من العلماء، بولادة تيار جديد اختار المقاومة السلمية لصد السياسات الهادفة لتغيير الهوية ولصد العادات السائدة في البلاد. لم يكن ضمن مخططات الحاج مالك سه محاربة الجمهورية ولا الشّخصيات، وإنما قاد حركة إصلاحية عقلانية تركز على التثقيف والأخوة.

أما في الضفة الأخرى فقد شهدت تركيا الكمالية التي نجت من الاستعمار المباشر جملة من القرارات التّحديثية مثل قانون توحيد التّعليم وذلك سنة 1924م بعد تأسيس الجمهورية التركية سنة 1923م، وبذلك ألغيت جميع المدارس الشّرعية التّقليدية، كما جاءت قرارات أخرى في إغلاق جميع التكايا التابعة للصّوفية وتجريم حلقات الذكر الصّوفي، حيث مثل ذلك انتهاء الاعتراف القانوني للطرق الصّوفية في البلاد (السبتى، 2023: 68).

يشبه هذا الوضع ما عاشه السنغال حين تولى الجنرال ديغول رئاسة الجمعية الإفريقية وكان مقرها العسكري والاستراتيجي "السنغال" حيث أصدرت قوانين تنص على منع تأسيس المدارس القرآنية المعروفة باسم "المدارات أو الكتاتيب" إلا بإذن خطي من الحاكم، وأن الأولاد يجب أن يذهبوا جبراً إلى المدارس الفرنسية وغير ذلك من القوانين التي تهدف إلى انتهاء الاعتراف القانوني بحياة الإسلام ومؤسساته التربوية والتكوينية، حيث كانت الزوايا وحلقات الذكر تراقب ليل نهار (سار، 2015، 248) حتى اتهم الحاج مالك بأنه يعدّ العدة للهجوم على المستعمرين حيث أن الأصوات المسموعة داخل زاويته في مدينة "القديس لويس" وقتئذ إن هي إلا أصوات جنود يتدربون على القتال وهو قائدهم، وفي الحقيقة كانت أصوات الفقراء الذين يذكرون الله على طريقة التجانية نسبة إلى الشيخ أحمد التجاني (انجاي، 2011: 13).

ومن بين التقارب بين العلمين كون السياسة الحاكمة كانت تهدف إلى إقصاء المؤسسات الشرعية وأو تحييد الأخويات الصوفية، وتنحية القيادات ومنع تأثيرهم على الأتباع، ولاحظت نفس الموقف في البيئتين حيث أن الطرق الصوفية أو الجماعات المتبقية والمقاومة أُجبرت على العمل تحت السرية التامة (ن مر: 248).

وفي نفس الفترة التي ظهرت فيها اللائكية في تركيا فاعلا جديداً، ظهر في السنغال نخبة معارضة لطبقة المشايخ كونتهم السلطة الاستعمارية للحد من سلطة المشايخ الصوفية وتأثيرها على الشعب السنغالي.

هنا في السنغال سيظهر قائد ومرشد بفكرة إصلاحية تقدم الأهم على المهم ثم الأقل أهمية، كما سيظهر في تركيا حركة النور وقائدها سعيد النورسي الذي واجه التهديدات التي تهدف لمحو الدين الإسلامي.

ولعل الفرق هنا أقول بأن النورسي اختبر في بداية حياته المعارك العسكرية بوصفه متطوعاً في الجيش العثماني إبان الحرب العالمية الأولى ومن ثم وصل إلى هدف آخر وهو تنشئة أجيال في مجال

التّعليم الدّيني والقيام بالصد عن الخلل الاجتماعي بعد تكوين الجمهورية، غير أن الحاج مالك سه في السّنغال لم يقم بمعركة عسكرية في حياته وإنما ولد ليجد المستعمر الفرنسي قد أحكم قبضته على البلاد فركّز جهوده في التثقيف والتّربية، حيث لم يتخل عن هدفه طيلة حياته، كما أسس وكوّن جماعة بهوية إسلامية قويّة قد يمكن أن نطلق عليها حركة إصلاحية دينية اجتماعية.

الحاج مالك سه كان صوفيا تجانيا بامتياز، وأن هذا التّصنيف نتج له استدعاءات مرات كثيرة للتحقيق، حيث تم إصاق التهم فيه لأنه وارث الحاج عمر المجاهد الكبير، في حين أن النّورسي لا يصنف نفسه صوفيا غير أن فكرة الصّوفية توجد داخل كتاباته ورسائله من حيث استعماله للمصطلحات المعروفة عند الصّوفية والبيئة التي عاش فيها وكذلك المشايخ الذين تلقى المعارف منهم.

لقد تم نفي سعيد النّورسي بعد أن عاش مضايقات كثير بوصفه صاحب رسالة إصلاحية كما هو معروف، وكتب خلال المنفى رسائل متعددة عرض فيها كثيرا من أفكاره وآراءه في عدة مسائل. في حين أن الحاج مالك كان من بين مخططات السّلطة الاستعمارية نفيه من البلد إلا أن أحد المقربين منه أوصاه لمعرفته بتدابير السّلطة أن يقترب من المدن الكبرى ويمارس نشاطاته بها، حيث أن القرب حجاب وفي التبعاد تشكيك، فجاء إلى مدينة القديس لويس العاصمة الأولى للسّنغال في ذلك الوقت، ورغم ذلك لم يسلم من المعارضة والمضايقات غير أنه لم ينف من البلد (السبتي، 2023: 68).

ومن الجدير بالإشارة إلى نقطة من الأهمية بمكان، ألا وهي فلسفة الأخوة عندهما، حيث نجد تقاربا كبيرا بين طريقة التعامل مع أنماط السلوك عند النّورسي والحاج مالك سه، إذ ثبت أن النّورسي كان يرفض أن يكون هنالك سلطة للشيخ على أتباعه بمعنى السيطرة التامة، وبالتالي حرص هذا الأخير على تقديم نفسه بأنه أستاذ وليس شيئا لطريقة معينة، كما هو الحال لدى الصوفية، حيث يقول: "إنني لست شيئا صوفيا، وإنما عالم ديني، والدليل على ذلك، إنني هنا منذ أربع سنوات، فلو كنت أعلم أحدا الطريقة لكان لكم أن تشكّوا، بل قلت لكل أتاني: لا بد من الإيمان والإسلام، والزّمن ليس زمن الطّريقة" (النورسي، 2020: 69).

ولعل هذه الفكرة سنجدها عند الحاج مالك سه حيث يرى أن سبب الفتن الدّاخلية في هذه السلطة التي يفرضها أشخاص على غيرهم باسم القداسة والتّصوف أحيانا، حيث يقول: "إِنَّ فَتْحَ بَابِ الْأُخُوَّةِ فِي هَذَا الزَّمَانِ خَيْرٌ مِنْ فَتْحِ بَابِ الشَّيْخُوخَةِ" (سه، 1961:32).

فهذا الخطاب عندنا صريح ومنبثق عن عمق تأمل ومعرفة تامة لما يعيشه المجتمعين التركي والسّنغالي في زمنهما، فما أحوجنا إلى فتح باب الأخوة في السّنغال اليوم، حيث نعيش أزمتا ناتجة عن الانغلاق والتّصعب الطّرقى والشّخصي والمذهبي لا مثال له في تاريخ هذا البلد. فما أطيب أن نجد آراء مختلفة في مسألة معينة سياسية كانت أم اجتماعية أم دينية، فنحلها دون سفك دماء الأخوة، ولا إصاق التّهم على الغير ولا بتكفير بعضنا بعضا، وهو أمر ضروري لإبقاء الوطن آمنا مستقرا رغم كل التّحولات والاختلافات في الآراء والمبادئ.

#### نقف عند هذين المقولين

ف نجد أن كليهما اجتمعا على مبدأ الأخوة في تحقيق سيرورة العمل الإسلامي، إذ حسب اعتقادنا التّعامل مع مختلف أنماط السلوك يقتضي مستوى من الوعي والتمييز، ولعل أهمها أن يتصف الدّاعي بالتواضع وأن يعتبر نفسه مثلهم، يشاركونهم في أمورهم ويشاورهم، يقول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ...﴾. (آل عمران:159).

ولا نشك في أن إقبال الناس لإتباع هذين العلمين اللذين لم يعيشا في وطن واحد ولا في رقعة جغرافية واحدة، وتأثير دعوتهما على أقوامهما ناتج عن فلسفتها الدعوية والإصلاحية، ورغم البعد المساحي والاختلاف الزّماني إلا أن الدّعوة المحمدية والرّسالة الإسلامية ملة واحدة لا تعرف التّمييز ولا الجنس، و نعتقد أن أمثال هذه الدّراسة تؤكد هذا التّقرب، وتكون في نفس الوقت دعوة وإشارة إلى ضرورة مضاعفة الجهد من أجل الانفتاح نحو الآخر وفتح آفاق الأخوة، نتحدث اليوم عن الحوار بين



الثَّقافات وتبادل الخبرات وغيرها، لذا نعتقد أن دراسة مناهج أعلامنا من جهة الإنجازات والأعمال الإصلاحية كحال هذين العلمين خطوة مهمة في تحقيق الأهداف المنشودة.

الحاج مالك سه من بين الشخصيات التي كانت ترفض هذه العادة القديمة الصوفية، يعني أن يتبرأ من شيخ أعلى الجماعة حيث يملك حق التصرف بلا معارضة ولا يقبل التقدير ولا مخالفة الرأي، وكان يعتقد أن ذلك من بين أسباب الفتن وتسبب الأناية وإعراض الناس عن التعليم والدين، وبالتالي طغيان التعصب الطائفي يعرقل المسار الدعوي والإصلاحي في كل جهة من جهات العالم، يقول في هذا الصدد:

"فإني لما رأيت فساد الزمان، واختلاط الأحوال، وكثرة القبيل والقال، وكثرة التعصب والحمية، بما لا يجلب الطائل ولا المزية، أرسلت إليكم الوصية، لتقيدكم - بحول الله وقوته - ما وقع في هذا الزمان من البلية، وإن أردتكم السلامة في الدارين، فلازموا الصلوات المفروضة، فإنها متكفلة بالعصمة من جميع المهلكات" (سه، مخطوط).

لقد أدرك الحاج مالك سه ما يجري داخل المجتمع السنغالي من طغيان التعصب الطائفي المنبثق عن شعور البعض بأن لهم الفضل على غيرهم بسبب بساط كونهم من عائلة كذا أو من نسل فلان بن فلان وغيرها فقام مجتهدا وكتب رسائل وخطب ووصايا تحذر الإنسانية من هذا الخطر الجسيم قبل فوات الأوان حيث وصل الأمر إلى هذا الحد يقول: "قلت: كأنه لم يبق اليوم من الدين إلا تصويب كل واحد ما كان عليه، دون ما كان عليه غيره" (سه، دت: 20).

نحلل ونقول: مصداقا لما قال التورسي والحاج مالك لثري:

أن سعيد التورسي رحمه الله، لم يشجع أتباع حركته على التعلق به بوصفه مرشدا كذلك، بل أمرهم أن يتعلقوا برسائله واتخاذها مرشدا أيضا، يقول: "أبلغكم يقينا أن كل كتاب من رسائل النور إنما هو "سعيد" فما من رسالة تطالعونها إلا وتستفيدون فوائد أفضل من مواجعتي بعشرة

أضعاف، بل تواجهوني مواجهة حقيقية. فلقد قررت أن أذكر في دعواتي وقراءاتي صباح كل يوم أولئك الرّاعبين في لقائي لوجه الله بديلا عن عدم استطاعتهم اللقاء، وسأستمر على هذا القرار" (النورسي، 2011: 73). إن الحركة النورسية قائمة على عدم الاعتماد على مرشد بالمعنى الصوفي، في مقابل الاعتماد على رسائل النور وهي بمثابة مصدر ملهم للأتباع ومرجع أدبي للحركة حيث أوصاهم بالرجوع إليها لما فيها من فوائد التي تغنيهم عن مقابلته ومواجهته (السبتي، 2023: 68).

وعند التعمق في هذا تحليل هذا الموقف نجد أن رفض بديع الزّمان سعيد النورسي للمرشد لم يكن إلا اضطرارا، حيث أن السلطة التركية في تلك الفترة كانت تحارب التّجمعات، ويمكن أن نجد ذلك عند جميع السّطات والحكومات الاستعمارية، فالتّجمع على قيادة دينية معين يخيف السّطة حتى في أيامنا هذه، لقد قامت السلطة الاستعمارية الفرنسية في عصر الحاج مالك سه بمنع التّجمعات وتم نفي كثير من المقاومين بهذا السّبب، إذ كانوا أصحاب نفوذ وأتباع فخافوا على كيانهم وحكمهم.

ففكرة المرشد العالم عند حد فهمنا لكلام النورسي، تحوّل من سلطة المخاطب إلى تأثير الخطاب، حيث أكدوا هذا الاتجاه بقوله. "تستفيدون فوائد أفضل من مواجهتي بعشرة أضعاف....." فالخطاب الصّافي من كدورات الأنانية والتّعصب يأتي بؤكله كل حين، ولا يهم هنا كثير إلى من يقوله، ولا يجب غض النّظر إلى القائل، فما يهمنا هو أن يكون الخطاب سببا في رفع مستوى وعي الإنسان من السّطحية إلى الموضوعية من التّدين الشكلي إلى تحقيق مقصد النّص الدّيني (إززال، 2011: 159).

فحياة الحاج مالك سه حافلة كذلك بالسّعي إلى وضع جماعته تحت مبدأ "أنتمي إلى أمة لا إلى فرقة ولا طائفة" فنجد الحاج مالك سه في قرية "انجارند"، وهي قرية سنغالية في منطقة كاجور، مكث فيها الحاج مالك سبع سنوات، ينفق جهدا مضاعفا في تكوين الهوية الإسلامية بهذا الهدف وكان بقاءه فيها لمدة سبع سنوات لم يكن يكوّن التجانيين ولا أولاده فقط وإنما جمع أنماطا مختلفة من الشّخصيات في شكل خلايا سيوزعون لاحقا إلى شتى المناطق لنشر هذا المشروع البنائي الاجتماعي، حيث كان على تمام المعرفة بالمشكلات التي تهدد المجتمع السنغال وكان من أهمها تغيير هذا المسار الدعوي ورؤية النّاس

لهذا المرشد الديني، فنجد الحاج مالك يشارك إخوانه - كما كان يسميهم - في الري وفي الحصاد ويقوم بالإشراف على حلقات الذكر ومجالس العلم. كما تحمّل الكثير من الانتقادات والأذى من قبل الوشاة وغيرهم وكان يقول لإخوانه: "لا تُدْخِلْ هَذِهِ الْهَقَوَاتِ فِي قُلُوبِكُمْ شَيْئًا، إِذَا سَمِعْتُمْ أَحَدًا يَدْمُمِي أَوْ يُطَلِّقُ عَلَيَّ مِنَ الْقَبَائِحِ مَا شَاءَ فَلْتَقَرُّتُوا لِي دَعْوَةَ الْخَيْرِ وَخَلُّوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَبِيلِهِ، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ لَا تُوجِبُ إِلَّا الْفِتْنَةَ وَإِنَّ مِنْ حُسْنِ الْأَخْلَاقِ احْتِمَالُ أَدَى الْخَلْقِ" (غيبه، 2017: 11).

هذه الفكرة الجديدة في سيرورة الحركات الإسلامية الإصلاحية تعدّ استراتيجية محكمة في حقل الدّعوي في السّاحة السنغالية وقتئذ، ونعتقد أنها لا تمثل نقطة خلافة بين العلمين حيث أن عدم دعوة بديع الزّمان إلى ضرورة المرشد في حد ذاته استراتيجية وأسلوب في الدّعوة حيث كانت الفترة تقتضي ذلك، غير أن المرشد لا يمكن الاستغناء عنه بشكل من الأشكال، فالحاج مالك سه يعترف بفكرة المرشد وسلطته بشروط وضوابط يقول:

تُمْ حَيَاةَ الدِّينِ وَالْإِسْلَامِ سُبْحَانَ خَالِقِ الْوَرَى السَّلَامِ

بِقَاوُهُ بِالْعِلْمِ وَالتَّقْوَى فَلَا تَصِحُّ دُونُهُ كَرَاهِدٍ حَصَالًا.

(سه: 2012: 46).

فالعمل الإسلامي وبقائه مع فاعلية وتأثير، لا بدّ أن يكون على العلم والتقوى والاستقامة ومضاعفة الجهد، وبالتالي لا بدّ أن يتّصف المرشد بمبادئ منها ما ذكرناه آنفاً، وستنتج تحول فحوى الخطاب الديني من إلى الدّاتية والعاطفية إلى الموضوعية والأخوة والعدالة واحترام الغير، وتحمي المجتمعات الإسلامية من أن تنفق جهوداً جبّارة في شكليات لا تسمن ولا تغني من جوع يضيف قاتلاً:

زَمَانُ أَنْاسٍ فِي إِمَاتَةِ سُنَّةٍ تَمَالَوْا وَبِتُّ الْعِلْمِ فِيهِ عُيُوبٌ

دَعَاوَى هِيَ الْعِلْمُ الْمُؤَكَّدُ عِنْدَهُمْ وَمُنْتَسِبٌ لِلْغَيْرِ لَعُوبٌ. (ن مص، 387)

يرى الحاج مالك سه أن الخير كل الخير في وجود مرشد قائم على التقوى والعلم وإذا لم يتصف العالم  
الديني بهاتين الصفتين أساسا فإنه سيذهب بدين القوم إلى الانهيار والانهدام لا محالة.

يقول رحمه الله:

وَهُمْ يَظُنُّونَ بِأَنَّ الْأَمْرَ يُنَالُ بِالْجَهْلِ وَفِيَتِ الشَّرُّ

تَعَلَّمُوا ثُمَّ اْعْمَلُوا لِلَّهِ ذَلِكَ طَرِيقُ الْكُبْرَى وَاللَّهِ

لَا تَضُرِّنَّ فِي حَدِيدٍ بَارِدٍ إِيَّاكَ إِيَّاكَ مِنَ التَّخَافِدِ. (ن مص، 387)

ولعل من أجل ذلك كان يرفض الوراثة الطرقية ، حيث ينصب الولد مكان الوالد إثر وفاته دون الرجوع إلى  
معرفة مؤهلاته قبل أن يتولى هذه المسؤولية الجسيمة والخطيرة يقول في هذا الصدد: " وَقَدْ جَعَلُوا هَذَا الشَّأْنَ  
الْعَظِيمَ ، وَالنَّائِيَ الْجَسِيمَ لِعَبِّ الصِّبْيَانِ ، وَضَحَكَةَ الشَّيْطَانِ ، حَتَّى يَتَوَارِثُونَهُ ، كُلَّمَا مَاتَ أَحَدٌ مِنْهُمْ ، كَانُوا يُجْلِسُونَ  
ابْنَهُ مَقَامَهُ صَغِيرًا كَانَ ، أَوْ كَبِيرًا ، وَيَلْبَسُونَ مِنْهُ الخِرْقَ ، وَيَتَّبِعُونَ بِهِ ، وَيُثْرِلُونَهُ مَنَازِلَ المُشَايخِ ، فَهَذِهِ مُصِيبَةٌ قَدْ  
عَمَّتْ ، وَلَعَلَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ ، قَدْ تَمَّتْ فَانْدَرَسَتْ أَتَارُهَا" (سه، دت: 125).

المرشد حقيقة حاضرة في فلسفة الحاج مالك سه، ولكن قد شدد فيه وجعل له ضوابط وشروط وأهمها العلم  
والتقوى والاستقامة، حيث كل من يتصفح كتاباته ورسائله سيجد هذه الفلسفة مكونة داخلها. في حين أن المرشد  
لا وجود له في فلسفة بديع الزمان بمفهوم المرشد عند الصوفية والطرق، يقول ابن عاشر في هذا الصدد:

يُصَحِّبُ شَيْخًا عَارِفًا الْمَسَالِكِ يَقِيهِ فِي طَرِيقِهِ الْمَهَالِكِ

غير أن الإمام سعيد التورسي أشار إلى ضرورة الرجوع إلى الرسائل، ويعني ذلك حسب البحث أن المسألة لم تكن  
أنه لا يعترف بالمرشد وإنما الوقت لم يكن مناسباً لإعلان ذلك، ونعتقد أن ذلك دعوة إلى مرشد حقيقي حيث أن كل  
رسالة تحمل في طيها جملة من التعاليم الأهداف، وإذا كانت تربي المرشد فإنها تعتبر مرشداً، وهذه الرسائل من عالم  
تقي نقي تعتبر امتداداً لوراثة الأنبياء، فيكون الكاتب أو القائل مجرد مبلغ عن ربه فتحقق الأهداف لا يقتضي

بالضَّرورة حضوره أو غيابه (عبد النبي، 2011: 69)، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رَسُولَهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾. (المائدة. آية: 67).

وإذا كان العلماء ورثة الأنبياء فهذا البيان الرِّباني يطبق عليهم أيضا، ولا أشك في أن كل من الإمام النورسي والحاج مالك أصحاب رسالة ولقد قاما بأدائها على قدر استطاعتهما، فاستعمال الخطابات والرسائل إن هي إلا نوع من الدَّعوة، مع العلم أننا نقبل الفكرة التي تقول بأن النَّصوص لا يفهمها الكثير لا يكفي مجرد التمكن من قراءتها أو حفظها، بل من الواجب حضور الحلقات والجلسات المعدة لشرحها وتدارسها. إنا نساند القول بأنه من الصَّعب للغاية فهم مخطوطات المشايخ القدامى دون مرشد يُوضح ويُؤول ويشرح ويستدل، كالذي يدرس اللغة العربية ولا يعرف القواعد (عبد النبي، 2011: 69-67). غير أن حياة بديع الزمان سعيد النورسي بين الاعتقال والمنفى لا تؤهله أن يشرف على حركة ولا جماعة، وهذا الحال عاشها الحاج مالك بمختلف المسالك.

#### بين المدرسة والدائرة:

يشترك الحاج مالك مع الإمام النورسي في نقطة أخرى وهي تحويل مراكز التربية والتكوين من الزوايا إلى البيوت، حيث كان الإرشاد الديني مقتصرًا في السنغال قديما على كتاتيب أو ما تسمى عندنا بالدارات لتحفيظ القرآن والمتون الابتدائية في ضروريات العلوم الدينية أو ما يطلق عليه بالمعلوم من الدِّين بالضَّرورة، فأسهمت هذه الأخيرة في تكوين عدد كبير من الرجال ونشر الثقافة الإسلامية، ونمت هذه الأخير حتى تحولت إلى زوايا ومساجد وحلقات الدرس والذكر حيث يجتمعون في مكان واحد يؤدون واجباتهم حسب التعليمات ومبادئ الطريقة الصوفية الإسلامية (قنديل، 2011: 110-111).

ومن بين أهم الأعمال التي قام به الحاج مالك هو بناء الزوايا في المدن التي يمر بها أو سكن بها فترة زمنية، وكان يحرص على تأسيسها قرب مقرات السلطة الاستعمارية، يمكن التَّحقيق من ذلك في مدينة القديس لويس، ومدينة دكار، ولكن كان يسعى إلى تحويل التَّدين الشكلي إلى الإسلام الاجتماعي الذي يستند إلى الفهم الصَّحيح لدقيق النَّصوص والتَّركيز التَّام على القيم الإنسانية الاجتماعية المحلية، لذا جاء بفكرة "الدائرة" وهي تجمع جماعة في بيوت مخصصة بهدف التعليم والتكوين والوقوف ضد

استقطاب الهيئات والمنظمات الاستعمارية والتبشيرية، أو بعبارة أخرى هي مصطلح يستعمل في السنغال تحديدا للحديث عن وحدة قومية اجتماعية تضم في طمها جملة من الإخوان بنفس الفلسفة - ليس بالضرورة أن تكون بنفس الطريقة - يجتمعون لدراسة أمورهم الدينية والدينيوية، كما تشمل وسيلة للتواصل بينهم (سيلا، 1985: 139-149).

ولتقريب الفهم الفلسفة نقول إنها مدرسة متنقلة بين الأحياء والبلدان يترأسها مرشد معين بأمر الرئاسة العامة للطريقة، وقد نجد تغييرا في تنصيب هؤلاء المعينين للإرشاد لأسباب اقتصادية أو تواصلية.

ومهما يكن من أمر فإن الحاج مالك سه استعمل هذه القنوات لبث فلسفته الإصلاحية ومحاولة تغيير صورة التربية والإسلام السطحي والشكلي الذي كان يسود البلاد، يقول: "جَعَلْتُ هَذِهِ الْمُدْرَسَةَ مَحَلًّا أُعَلِّمُ وَ أُتَعَلَّمُ فِيهَا" (سه، 1961: 30).

هذه رؤية جديدة عن فلسفة الصوفية القديمة حيث يكون المرشد الروحي دائم الانعزال عن الجماعة إلا للضرورة، وهذا الحاج مالك سه يقول أنه طالب من بين طلاب، أي أنه ينتمي إلى مؤسسة كبيرة وكل من فيها أخ له، وهذه الفكرية نفسها نجدها عند بديع الزمان سعيد النورسي يقول أن الصوفية يعتمدون مصطلحي الفناء في الشَّيخ والفناء في الرَّسول، لكن النورسي يؤكد عدم انتمائه للطريق الصوفي تنظيميا، ومع ذلك يعتبر أن مصطلحهم هذا من الممكن أن يكون يكون دستورا جميلا في مسلك رسائل النور، ولكن على صورة ما يسميه بـ "الفناء في الإخوان (الأنصاري، 2014: 96).

فهذه الفلسفة في تدبير الشأن التربوي وفق الرؤية النورسية تجعلنا نظماً في دراسة حياته العلمية والحركية والإصلاحية، وسنجد هذه الفلسفة عند الحاج مالك سه أيضا كما سبق أن ذكرنا ذلك. فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى الأخوة الإسلامية التي تقربنا ونحن نبحت عن حياة علمين لا جنس ولا وطن ولا حتى لغة تجمعهم، ولكن الصلة التي بينهما أبعد وأكبر من كل ما ذكرناها، وهي الأخوة الإسلامية، والعقيدة الإسلامية السَّامية، فضرورة هذه الوريقات إن هي إلا فتح آفاق للبحث في

المستقبل ومقابلة الحركة في نية تقريب الثقافات لتوحيد الهدف، فهذا البيان الرباني تؤكد ضرورة التّعارف ومعرفة الصلة والترابط بين الأجناس رغم اختلاف اللون والبشرة واللغة والوطن وغير ذلك.

### التأثير

لقد أثرتا دعوتنا كل من بديع الزمان سعيّد النورسي والحاج مالك سه على مجتمعهما أيما تأثير، علاوة على إقبال النّاس على معرفة ودراسة حياتهما العلمية و إفاء حياتهما على تكوين الهوية الإسلاميّة والاعتماد على القيم الإنسانيّة، ومحاول تجديد المسار الإسلامي في بلديهما من الإسلام الطّرفي إلى الإسلام الاجتماعي، فتميز كل واحد منها بجملة من الرّسائل تضمن حقائق صارمة على الحياة الاجتماعيّة والدينيّة وتختلفان في كون الحاج مالك، أنفق جهدا كبيرا في نشر الطريقتة التّجانيّة في السّنغال، كما ألّف في ذلك، علاوة على كونه ألّف كتباً كثيرة لم يكتف بكتابة الرّسائل للإخوان فحسب، بل كان ينشر موقفه عن الظواهر المعيشية اليوميّة الحاضرة داخل المجتمع ويأتي بالحلول حتى الخطب في خطبه وأشعاره.

وما يهمننا هنا هو المقارنة في التّأثير، ولعل في هذه التّقطة بالذّات نجد الجماعات التّورسية تتفوق على الجماعات المالكية التّواوونية السّنغالية في التنظيم، لعدة أسباب منها:

اختلاف الفترات والبيئّة: ففي التّورسية نجد الاهتمام البالغ للحركة في في نشر أفكار رسائل النور بمختلف القنوات من جهة نشر العلم عبر إقامة الندوات العلميّة الجامعيّة، وتفرد كل جمعيّة بمهمة منفصلة عن غيرها من الجمعيّات، مثل وقف الخيرات للمساعدات الإنسانيّة، وهذه جمعيّة الخيرات للطلاب الدوليين، وأخرى لتحفيظ القرآن الكريم، وهكذا (السبتي، 2023: 71).

وهذه الفلسفة حاضرة عند حركة الحاج مالك سه ودعوته الإصلاحية منذ القديم حيث انطلقت منذ أن قام بتكوين أعوان له في الدّعوة حيث وزعهم في أرجاء البلاد، وكان يوصي إخوانه أن يؤسسوا جماعة يتكفلون بها بوصفهم المرشدين الرّوحيين ويشرفون على الحركة رغم محدودية الإمكانيات وأمام

المضايقات، وهذه الفكرة ستتمو حتى تأخذ شكل الدائرة التي يخصص لها ميزانة خاصة تقوم على تغطية أنشطة اجتماعية مختلفة وتمول من عائدات الفلاحة والتجارة سابقا وتبرعات أصحاب الخيرات. غير أن الفرق بينهما أن هذه الفلسفة الحديثة لا تقدم منتظراتها في السنغال كما كانت متوقعة لعدة أسباب لعل أهمها أنها تحولت إلى ملكية خاصة للعائلة الطرقية فبدلاً أن تساهم في تخفيض الفرق والجوع والبطالة، أدت غالباً إلى ملء جيوب بعض الشخصيات. وفي جمعيات النورسية تختلف من حيث أننا نشعر بفغالية كبيرة وتأثير بالغ حيث نجد من تلقون مساعدات مقدره في مستوى المشوار العلمي والتفتح إلى عالم الغير وغير ذلك.

### الختام

وعلى كل حال، حاولنا في هذا المقال أن نسلط الضوء على أن الدعوة إلى الإسلام وحدة لا يمكن تجزئها، ولا تعترف باختلاف اللون ولا الجنس ولا اللغة، فعلى الباحثين أساساً أن يحاولوا التطرق عمّا يقرب الأسرة الإسلامية بدلاً من إنفاق جهود كبيرة فيما يفرق الشعوب بشكل من الأشكال، لم نكن نقصد من عملنا هذا إلا إظهارا لبعض نقاط الاتفاق في الهدف والوحدة، مؤكداً على أن المسار الإسلامي قد عرف في نشره جملة من العلماء دون النظر إلى انتماءاتهم الطرقية والبلد ناهيك عن اللغة والبشرة.

ففي الوقت الحالي، يجب التركيز على الحوار بين الثقافات علاوة على الوقوف على كل ما يمكن أن يقربنا إلى الأخوة الإسلامية الصادقة، بالعلم والعمل فيما يرضي الله تحت سقف التبادل ودراسة أعلام الأمة الإسلامية.



المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. النورسي (سعيد)، سيرة الحياة، تر إحسان قاسم صالح، دار سوزلار للنشر. القاهرة، ط6، 2011.
3. النورسي (سعيد)، الملاحق، تر إحسان قاسم صالح، دار سوزلار للنشر. القاهرة، ط6، 2011م.
4. النورسي (سعيد)، المكتوبات، ترجمة مركز الترجمة والبحوث العلمية، دار الخيرات للنشر. إسبارطة، ط2، 2020م.
5. سه (مالك)، رسالة مفتوحة للشيخ الحاج مالك سه إلى جميع إخوانه، مخطوط في حوزة الباحث.
6. سه (مالك)، كفاية الراغبين فيما يهدي إلى حضرة رب العالمين، بخط صمب بن محمد المنصور جانج، شركة بحر العلوم للنشر والتوزيع، معهد الشيخ الحاج مالك سه للدراسات والبحوث العلمية-تواوون، دت.
7. سه (مالك)، الديوان الشعري، نسخ أبي بكر امبي، دن، دط، 2012م.
8. إزرال (حسن)، " بديع الزمان سعيد النورسي ومشروعه الإصلاحية في التربية والتعليم"، النور للدراسات الحضارية والفكرية، مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلم. إسطنبول، ع3، يناير 2011.
9. انجاي (عثمان)، الحاج مالك بين يديك، دار المقطم للنشر والتوزيع. القاهرة، ط1، 1432هـ - 2011م.
10. الأنصاري (فريد)، " بديع الزمان النورسي من برزخ التصوف إلى معراج القرآن"، النور للدراسات الحضارية والفكرية، مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلم. إسطنبول، ع9، يناير 2014.
11. البرني (محمد جوف)، أعلام الهدى في غرب إفريقيا، دن-السنغال، ط1، سنة 1999م.
12. توري (شيخ تجان الهادي)، تحرير الأقوال في تاريخ السنغال، دتج، دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة. مصر، ط1، 1430هـ - 2009م.
13. سار (عبد الكريم)، التاريخ السياسي للإسلام في السنغال، دن-السنغال، ط1، 2015م.
14. السبتي، (محمد)، العرب النورسيون بتركيا والتحولت الدينية المهاجرة من الإسلام الطرقي إلى الإسلام الاجتماعي: حالة وقف الخيرات، رسالة لنيل شهادة الماجستير في علم اجتماع التغيير الاجتماعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، قسم علم الاجتماع، 2023.
15. سه (شيخ تجان)، مجهول الأمة السنغالية، المكتبة السنغالية في خدمة التراث الإسلامي السنغالي- دكار، ط1، 1961م.
16. سه الابن (الحاج عبد العزيز)،: الفياض، درا الاتحاد للطباعة -السنغال، مجموعة تمبكتو للدراسات، دط، دت.
17. سيلا (عبد القادر)، المسلمون في السنغال: معالم الحاضر وآفاق المستقبل، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. قطر، ط1، 1406هـ - 1985.

18. عبد النبي (محمد)، "تربية النفوس عند بديع الزمان النورسي" النور للدراسات الحضارية والفكرية، مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلم. إسطنبول، ع4، 2011.
19. غي، (شيخ تجان)، لا بد من فلا بد، طبع فرق الزاوية التجانية، تاون. السنغال، 2017م.
20. قنديل (محمد)، "منهج التربية عند النورسي" النور للدراسات الحضارية والفكرية، مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلم. اسطنبول، ع4، يوليو 2011م.
21. كورنيل (سفانتي)، "الطريقة النقشبندية الخالدية والإسلام السياسي في تركيا"، معهد هودسونر. نيويورك، تر إدراك للدراسات، أغسطس 2016.
22. المنتقى (أحمد محمد)، الجواهر والدرر في سيرة الشيخ الحاج عمر، دار البراق للنشر والتوزيع-باريس، ط1، 1425هـ-2004م.
23. Thiame (IBA DER), **Cellule Zaoiya Tijjaniya: sur le theme: Revalorisation du patrimoine Culturel et intellectuels de la Tijjaniya : enjeux et défis**, HOTEL KING FAHD PLACE, DAKAR- SENEGAL, 28 décembre 2013.
24. Wane (Birane), **L'islam au Sénégal, le poids des confréries ou l'émiettement de autorité spirituelle**, Thèses de doctorat en sociologie- anthropologie , Faculté de Lettres et des science Humaines, Université cheikh Anta Diop de Dakar- Sénégal, soutenue le 18 octobre 2010.